سِـرّ ُ الشـهيدَين

د. جعفر المهاجـر

يتمتّع الشهيدان محمد بن مكي الجزيني (ق : ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م) وزين الدين بن علي الجُباعي (ق : ٩٦٥ هـ / ١٧٥٥ م) بمكانةٍ مُميّزةٍ جـدّاً في الوُجدان الشيعي الإمامي . و من إمارات ذلك أنهما وحدهما فازا بهذا اللقب الترتيبي (الشهيد الأول) (الشهيد الثاني) وصارا علميَن عليهما ، وغلبَا على اسميهما الأصليَين . مع أنهما ينتميان إلى ثقافةٍ لا تشكو أبداً من نُدرة الشهداء . ولطالما جرت محاولاتٌ لإضافة ثالثٍ إليهما ، من عظماء العلماء الذين نالوا شرف الشهادة الدنضاليّة من بعدهما ، فما تقبّل الكيان الثقافي نفسه ذلك . وظلّ شرف اللقب على هذا النحو محصوراً بهما .

فما هو السِرّ في ذلك ؟ بل قبل هذا : لماذا هذا السؤال ؟

إن المعنيين بدراسة سِيَر المشاهير، الذين بقيت أسماؤهم حيّة ، يُردّدها مَن بعدُهم بالاحترام والتبجيل ، يعرفون جيداً أن الناس لا تمنح هذه المرتبة جُزافاً ومجّاناً . وإنما مُقابل عملٍ مُميّزٍ أنجزه ذلك الشخص ، بحيث أنه أسّس وعبّد السبيل لمن بعده فساروا فيه . فمن هشام بن الحكم إلى الإمام الخميني هناك سلسلة من الأسماء ذات الحضورالقوي في وجدان الناس : الشيخان الكليني و الصدوق ، الشيخ المفيد ، السيّد المرتضى ، الشيخ الطوسي ، ابن إدريس الحلّي ، المحقق الحلّي ، العلاّمة الحلّي ، نصير الدين الطوسي . . . . . الخ. هي بمثابة علامات على طريق طويل . كلّ اسم منها يؤشّرإلى منعطَف . إلى أن يأتي الكبير التالي فيؤسّس منعطفاً جديداً . وهكذا دواليك . والحقيقة التي يعرفها كلّ مَن له معرفة بالتطوّر الفكري والمنهجي للتشيّع الإمامي ، أن تلك الأسماء ليست فقط لأعلام وإنما هي أيضاً لمدارس ومناهج . فشتّان ما بين ممُثّلَي المنهج النقلي الحديثي الكليني والصدوق ، و بين ممُثلَي المنهج العقلي الكلامي المفيد والمرتضى . وبين هذيَن ، وبين الطوسي الذي زرع النهج الاجتهادي الاستنباطي فأينع من بعده ..... الخ . وهذه الحركة بمُجملها دليلٌ على حيويّة الوعاء الفكري العام الذي خاض فيه أولئك الأعلام ، وقدرته على التخليق الدائم .

عادةً يكون سرّ الكبير معروفاً للذين عاصروه وتأثّروا مباشرةً بأعماله . لكن هذا السرّ يُنسى بعد أن يصبح ما أنجزه سُنّةً قائمة . بحيث يبدو لغير العارف وكأن الأمور كانت دائماً على هذا النحو . وتساهم كتب السيرة والرجال ، عن غير قصد ، في دفن سرّ العظيم . لأنها

تصبّ عنايتها على الشخص : أطوارَ حياته وأعماله . ولا تمنح تركيب الجزئيّات القدْرَ الكافي من العناية . أعني دون العناية بالتفاعلات بين الإطار ، أي بين العصر ومواصفاته ، وبين الصورة ، التي هي جَمَاع أعمال وأفكار العظيم . بحيث نشأ من التفاعل بينهما سُنّةٌ قائمة ، كان من قوتها أنها فرضتْ حضورها واستمرّت من بعده .

هنا تأتي وظيفة الباحث في إعادة اكتشاف السرّ الضائع . و هي مُهمّة ليست سهلةً بالتأكيد . خصوصاً وأن عليه أن يقرأ التاريخ بطريقةٍ مقلوبة . أي من الحاضر إلى الماضي . عليه أولاً أن يستوعب مواصفات السّاحة التي عمل فيها الكبير الذي يدرسه استيعاباً ممتازاً . ثم يقرأ أعماله قراءةً مُستوعبةً . بالإضافة إلى معرفة العناصر المُستمرّة من إبداعه لدى مَن بعدَه . فإذا هو أحسن في كلّ ذلك تجلّى أمامه السرّ . ومن أبرز الأمثلة على ذلك أنموذج الشيخ الطوسي . الذي نرى أن سبب المكانة التي احتلها في تاريخنا الثقافي وفي الوجدان الشعبي أيضاً ، أنه نجح في تركيب منهجٍ وسطيٍ جديد ، هو جَماعُ المنهجين النقلي والعقلي لمن سبقوه . وبنى عليه كتبه : (التهذيب) و(الاستبصار) في النقلي ، و(المبسوط) و(الخلاف) في العقلي ــ الاجتهادي . وهذه نقلة كبيرة قدّمت حلولاً ناجعة لمشكلاتٍ منهجيّةٍ كانت مُستعصيةً من قبله . فرضت حضوره الطاغي على كلّ الساحة الفكريّة . ثم تلقّفتها وطوّرتها من بعدُ مدرسة الحلّة ، وعنها مدرسة جبل عامل . وما يزال التطوّر عالقاً حتى اليوم . لكن شرف الريادة محفوظٌ له وحده دون مُنازِع .

هناك مُشكلة إضافيّة تتعلق بما يخصّ الشهيد الأول من هذا البحث . هي أن المعلومات المتوفّرة عنه وعن ميدان عمله لا تتكافأ أبداً مع حجم حضوره الكبير في الوجدان الشعبي ، بل حتى ولا مع حجم حضوره في المصادر التاريخيّة غير الشيعيّة المُعاصرة له . و هذه ملاحظة تترك الباحث على شبه اليقين بأن هناك عناصر كثيرة من سيرته مفقودة . وهو أمر لا ريب فيه على كل حال . فلنأخذ مثلاً ملابسات مقتله الفاجع . إن التسجيلات الوحيدة التي وصلتنا عن الواقعة هي ما كتبه تلميذه المخلص المقداد بن عبد الله السيّوري ، الذي رافقه أو تبعه من الحلّة ، وعمل معه في جزين مدّة عشرين سنة على الأقل . ثم غادرها بعد مقتل شيخه إلى النجف ، حيث عاش ما بقي له من العمر حزيناً كاسف البال مع ذكرياته . فأين بقيّة تلامذته الكثيرين ؟ ولماذا لم يسجلوا ما عرفوه من سيرة شيخهم الجليل الذي ربّاهم ؟ نعم ، هناك السيرة المفصّلة التي كتبها تلميذ آخر مجهول ، هو ابن الوحيد البتدّيني . الذي صنّف على سيرة شيخه كتابه المفقود(نسيم السّحَر) ، ولم يصِلنا منه إلا ما اختصره عنه حفيدٌ بعيدٌ للشهيد . حوى معلومات مُهمّة جداً عن الأصل ، رغم اعتقادنا بأنه اختصار مُشوّه ، ممّا يزيد من حسرتنا على فقدان أصله .

لكن المشكلة الكبرى في هذا النطاق لا تتعلّق بالسيرة الشخصيّة للشهيد ، بل بميدان عمله ، أعنى جبل عامل . فنحن لا نعرف ما يُذكر عن حقيقة الوضع الذي عمل عليه الشهيد في وطنه . ولقد عرفنا من المقدّمة المنهجيّة التي غادرناها قبل قليل ، أن أول ما على الباحث الذي يسعى إلى كشْف سرّ العظيم ، هو أن يستوعب مواصفات الساحة التي عمل فيها . بدون ذلك لن ينجح في تقدير قيمة أعماله . ونحن لا نشك في أن هذه المواصفات كانت معروفة لمعاصريه ، ولذلك لم يُعنَ أحدٌ بتسجيلها بشكل مباشر . ولكم ضاعت أجزاءٌ من التاريخ لأنها كانت معروفة مشهورة ، فاستنكف المؤرخون عن تسجيلها لشُهرتها . ولم تظهر قيمتها للباحثين إلا بعد حدوث مُتغيّرات أساسيّة ، تدفع مَن يأتي بعدَهم إلى التساؤل عمّا كان قبل ، ولكن بعد فوات الأوان . إذن ، فهاهنا عنصر منهجي ضروري للبحث مفقود ، سنسعى بعون المولى سبحانه أن نركّبه من معلوماتنا التاريخيّة .

(١)

حين نصِل إلى هذه المرحلة من البحث ، فإننا نشرع بتسجيل أبرز عناصرسيرة الشهيد :

ـ ١ : أنه ابن مدرسة الحلّة ومنهجها الأصولي ـ العقلي ـ الاجتهادي . على أن هذه النقطة ليست امتيازاً فريداً له ، لأننا نعرف أن الرحلة في طلب العلم من جبل عامل إلى الحلّة كانت قد بدأت قبله بقرنين تقريباً .

ـ ٢ : أنه أول فقيه عاملي كبير نجح في أن يكتسب لنفسه حضوراً عامّاً في وطنه .

ـ ٣ : أنه أول من أنشأ في وطنه حركة علميّة كبرى . فيها دراسة وتدريس وتصنيف . ولهذا الغرض بنى في جزّين مدرسة ، هي أول مدرسة في التاريخ الشيعي الثقافي . كما استحضر معه من الحلّة من تلاميذه مَن يعاونه في التدريس . وعن هذا الطريق خرّج مجموعةً كبيرةً من الفقهاء . دفعهم فوراً إلى ميدان العمل التبليغي والتوجيه الاجتماعي والسياسي . ممّا استفرغنا الوسع في الكلام عليه في كتابنا (الشهيد الأول عصره ، سيرته ، أعماله وما بقي منها) . وبفضله بدأت نهضة جبل عامل ، التي استمرّت من بعده زهاء القرنين من الزمان . وخرّجت مئات العلماء الذين انتشروا في مختلف الأقطار ، وزرعوا حيثما حلّوا الباقيات الصالحات .

هذه إنجازات كبيرة جدّاً ولا ريب . بل أزعم أن ليس لها شبيه في كلّ تاريخنا الثقافي . ومع ذلك فإنني أعتقد أن سرّ الشهيد ليس مخبوءاً فيها . لماذا ؟ لأننا نعرف أن إطلاق لقب الشهيد

على الإطلاق عليه كان بمُبادرةً شعبيّة . ومن المعلوم أن الجمهور ليس قادراً على تقدير أعمال علميّة من النوع الذي وصفناه ، خصوصاً في مراحلها الأولى ، وقبل أن تؤتي ثمارها اليانعة . إذن ، فإن علينا أن نبحث عن إنجازٍ آخر خفي علينا ، ووصل إلى الجمهور مباشرةً . وكان العلّة والسبب في ذلك الحضور المُميّز جداً للشهيد في الوجدان الشعبي .

بناءً على المنهج الذي رسمناه قبل قليل ، فإن الخطوة الأولى في خريطة طريق البحث عن السرّ ، ينبغي أن تبدأ في ما كان عليه جبل عامل قبل الشهيد ، ومن هنا ننطلق إلى قراءة أعماله وأثرها .

ونحن نعرف أن جبل عامل تكوّن سكانيّاً في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد . أمّا قبل ذلك فقد كان شبه يباب . وتكوّنه إنما حصل بسبب البعثرة السكانيّة الهائلة التي أحدثتها الغزوات الصليبيّة ، حيث السكان المرعوبون ، الذين كانوا ينزلون وادي الأردن وساحله ، التجأوا إلى الجبل المجاور ، هرباً من المذابح التي نظّمها الصليبيون أينما وصلوا . ومن وادي الأردن سكان مدينة طبريّة ، وقد كانت يومذاك عاصمة التشيّع في المنطقة ، فضلاً عن عشرات القرى والمزارع المُطيفة ببحيرتها العذبة . أمّا من ساحله فمدينة صور وجوارها . وقد كانت أيضاً عامرة بالشيعة . هؤلاء جميعاً لجأوا إلى الجبل الوحيد القريب منهم ، أي جبل عامل ، كما يفعل الناس في ذلك الزمان عندما ينزل بهم بلاء الحروب والفتن . وهكذا تكوّن جبل عامل الذي نعرفه سكانيّاً .

علينا الآن أن نُحدّد ماذا نعني بالضبط عندما نقول أن هؤلاء جميعاً كانوا شيعة . هل هو التشيّع الفقهي ـ الكلامي الذي نعرفه ؟ وفي الجواب نقول : كلا بالتأكيد ! فهذا التشيّع قد نما وازدهر في العراق ، في بغداد والحلّة وإلى حدٍ ما في النجف ، ومن هذه الحواضر العلميّة انتشر . أمّا التشيّع الشامي فإنه تشيّع ساذج بسيط توارث أهله حبّ أهل البيت (عليهم السلام) ، لم يُنتج فكراً وأدبيّاتٍ وتصنيفات ، إلا حيث اتصل بالتشيّع العراقي ، في حلب وطرابلس بالتحديد . حيث ازدهرت لفترةٍ قصيرةٍ نسبيّاً حياة عقليّة خصبة ، من أعلامها أبو الصلاح الحلبي وابن البرّاج والكراجكي الطرابلسيان وغيرهم . وهؤلاء جميعاً من أبناء بغداد فكريّاً .

هكذا ارتسمتْ خريطة التشيّع في المنطقة الشاميّة كما لا يزال قسمٌ كبيرٌ منها قائماً حتى اليوم : تشيّع شامي في الساحل السوري والتلال المُشرفة عليه (العلويّون) ، وآخَر في الأناضول وتركية وصولاً إلى ألبانيا (البكتاشيّون) . مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذين الاسميَن حديثان نسبيّاً . ومن قبل كان الجميع يحملون اسم (شيعة) . ويبلغ عديد هؤلاء جميعاً زهاء الثلاثين مليوناً . وتشيّع فقهي كلامي في نواحي حلب وإدلب وحمص في سورية ، هو بقايا تأثير حلب واتصال أعلامها بالعراق . وآخَر في جبل لبنان ، انتشر بالهجرة القسريّة نحو سهل البقاع

وبعلبك . هو بقايا تأثير طرابلس واتصال أعلامها أيضاً بالعراق . ويبلغ عديد هؤلاء أكثر من المليون بقليل . ومن هنا نعرف أن أكثر التشيّع في المنطقة لا يزال على النمط الشامي التاريخي الساذج والبسيط .

امّا جبل عامل والتشيّع فيه فله قصّةٌ وتاريخ مُختلف . بطلها هو بطل هذا المؤتمر، الشهيد الأول .

(٢)

ممّا لا ريب فيه عندنا أن التشيّع الشعبي في جبل عامل قبل الشهيد لم يكن شيئاً مختلفاً عن التشيّع الشامي . وأنّى له أن يكون غير ذلك . ومن أين يمكن أن يكتسب ويبني تشيّعاً فكريّاً ، فقهيّاً كلاميّاً ، مادام لم يعرف في كلّ تاريخه من قبلُ حياةً عقليّة ذات وزن وأثر ؟ نقول هذا مع علمنا بأن عدداً من أوائل علمائه الروّاد قد أسّسوا الاتصال بالحلّة ، أهم مركزٍ علميّ في ذلك الأوان ، ورجعوا إلى وطنهم ، وكان لهم بعض التأثير، وقد أحصينا مَن نعرفهم منهم وعرّفنا بهم في كتابنا (جبل عامل بين الشهيدين) . ولكن لا ريب في أن تأثيرهم كان محدوداً جداً ، ومحصوراً في دوائر ضيّقة . فضلاً عن أنهم سبعة فقهاء موزعون على فترة قرنين . ولم يجتمع منهم اثنان في وقتٍ واحد بوصفهما عالِمَين ناضجَين . ولم يكن لأيٍ منهم من قوّة الحضور، أو بُعد المرمى ، أو إدراك مواصفات المرحلة ، أوصفات البطل التاريخي ، ما كان للشهيد الأول من بعدهم . نقول هذا مع تقديرنا الكبير لدورهم الريادي ، الذي كان خير تمهيد للمشروع الكبير الذي قاده ورعاه بطل النهضة .

هناك مؤشّرات قويّة جداً على ما قلناه من مواصفات التشيّع الشعبي في جبل عامل قبل الشهيد . ولكن هذه المؤشّرات غير مباشِرة ، ومن هنا فقد خفيتْ على الباحثين . لأنهم لم يتأملوا في مغزاها ، ولم يلتفتوا إلى خبيئها . هي ما تذكره أكثر المصادر التي ترجمت للشهيد ، وخصوصاً (مختصر نسيم السّحَر) ، حيث قالت أن كلّ الذين رفعوا راية الخلاف له وقاوموا نهجه النهضوي هم من أهل الشعوذة . أي الذين يلجأون في التأثير على الجماهير البسيطة إلى النيرنجات والحيل التي يخدعون بها أعين الناس . وهذا أمر غير عادي ينبغي التوقّف عنده ، خصوصاً وأنه ، كما قلنا ، يكاد أن يكون موضع إجماع المصادر . فمن هم هؤلاء المشعوذون ؟ ولماذا قاوموا الشهيد مقاومةً وصلتْ إلى حدّ القتال والقتل ؟

إن العارف بمواصفات التشيّع الشامي الشعبي ، كما لا يزال مستمراً حتى اليوم ، يعرف جيّداً أن هذه من مواصفاته البارزة . فحتى اليوم إذا أنت جلستَ إلى أحدهم ، وذكرتَ له أحد الشيوخ من ذوي المكانة عندهم ، لسمعتَ العجب من صنوف الخوارق العجيبة التي تُنسب إليه .

ممّا كان السبب عندهم في تقديسه وتعظيمه . و هذا أمر طبيعي في غياب الرابطة الفكريّة والشعائريّة ، التي هي عماد الرابطة بين الجماهيروالعلماء في التشيّع الفقهي ـ الكلامي .

من هنا نعرف أن هؤلاء الذين قاوموا الشهيد في جبل عامل ، إنما كانوا رموز التشيّع السائد فيه آنذاك وقادته المعنويون . الذين رأوا في أعماله (إنشاء مدرسة ، استحضار مُدرّسين من الحلّة ، تربية تلاميذ ليكونوا فقهاء ، نشْرهم في مختلف الأنحاء ليتولوا مهمّات تبليغيّة وقياديّة ، تأسيس نظام للجباية الماليّة للإنفاق على الحركة المطلبيّة الشعبيّة) ـ رأوا فيها بحق اختراقاً جذريّاً لمُجمَل الوضع الاجتماعي ـ السلوكي الذي يتربّعون عليه . ممّا سيعني إزاحتهم نهائيّاً عن المكانة التي يتمتعون بها ، وخسارة كل امتيازاتهم . وعليه فقد كان من الطبيعي أن يقاوموه تلك المقاومة الشرسة . وهم الذين نجحوا في نهاية المطاف في تأليب السلطة الإقليميّة في دمشق عليه . وكانوا السبب الرئيس في المحاكمة المُهلكة التي دُبّرتْ له . ونحن نعرف نهاية القصّة . فمقتلُ الشهيد لم يكن نهايةً لشئ من انجازاته ، وإنما بدايةً لمرحلة جديدة من العمل ، تولاّها أثناء سجنه الطويل وبعد شهادته كبارُ تلامذته ، وأخذت تظهرعلى أيدي تلاميذهم المراكز العلميّة تباعاً في مختلف أنحاء جبل عامل الثقافي . ممّا شكّل بمجموعه نهضةً استمرّت من بعدُ مدّة قرنين من الزمان . وكانت حدثاً مفصليّاً في التاريخ الثقافي للتشيّع ، ما نزال ننعم ببركته حتى اليوم .

هل انكشف الآن السرّ الخفي للشهيد ؟ هل عرفنا لماذا خصّه شعبه بلقب (الشهيد) على الإطلاق ؟

إن إنجازه الأكبر والرئيس أنه نجح في اختراق التشيّع الشامي البسيط الساذج الذي كان سائداً في جبل عامل . ووصلَ ما بين بلده وبين الحلّة ومركزيتها العلميّة ، وبذلك صنعَ جبل عامل الذي دخل التاريخ من أوسع الأبواب . وبذلك كرّر سابقتي حلب وطرابلس على نحوأكبر بكثير. مع الأخذ بعين الاعتبارالفارق النوعي الكبير بين هاتين الحاضرتيَن وبين إنجاز الشهيد . فأعلام حلب وطرابلس لم يكونوا يحملون هموماً تاريخيّة . بل كانوا يعملون في إطار الممكن والمعطيات القائمة ، كلٌ في دائرته الشخصيّة . أمّا الشهيد فإنه عمل عملاً منهجيّاً ، مبنيّاً على خطة مرسومة بدقّة ، باتجاه هدفٍ مُحدّد ، وسخّر لها كلّ ما وصلت إليه يداه من وسائل ، ونجح فيما رمى إليه أيّ نجاح ، وإن لم يرَ نتائج عمله إلا من بعيد . إنه البطل بكل المعاني والمقاييس : في إدراكه العميق لأزمة شعبه . وفي تخطيطه الدقيق لتجاوزها . وفي نجاحه رغم ضآلة الإمكانات وضخامة المُعيقات . وهذه جَمَاع سِمات الأبطال التاريخيين .

هكذا فعندما منحه أهل جبل عامل لقبَ (الشهيد) على الإطلاق ، إنما كانوا يسجّلون اعترافهم بفضله العميم عليهم . إنه العقل الجَمْعي بذكائه المعهود وهو في قمّة إبداعه ، مُتفوّقاً

على الذكاء الفردي . وهذا هو السرّ في أن هذا اللقب ظلّ حُكراً عليه. إلى أن قُتل خلفه الشيخ زين الدين ، أعلى الفقهاء الشيعة آنذاك مكانةً في المنطقة الشاميّة ، على يد العثمانيين . وقد كانت جريمة قتله عملاً غبيّاً بقدر ما هو جريمة نكراء . ممّا أثار ضجّةً هائلةً تجاوبت أصداؤها من مصر إلى إيران . فما كان من الجماهير وعقلها الجماعي إلا أن نصّفت اللقبَ بينهما بهذا الترتيب الفريد .

ومع ذلك نقول : شتّان ما بين شهادةٍ نضاليّة ، مهما تكن درجتها من الصدق ، وبين شهادةٍ نضاليّة توّجتْ إنجازاً تاريخيّاً أصيلاً فكريّاً ونهضويّاً من حجم الانجاز الكبير والتاريخي للشهيد الأوّل .